المحاضرة 3: الدويلات المستقلة في المغرب–الدولة الرستمية (161هـ –296هـ / 778م – 909م)

الأهداف:

–أن يتعرف على دور الخوارج في قيام الدولة الرستمية

–أن يتعرف على مؤسسها عبد الرحمن بن رستم

–أن يميز مراحلها من التأسيس إلى الانهيار.

–أن يحلل أسباب الانهيار

مقدمة:

تعتبر الدولة الرستمية من الناحية التاريخية أول دولة إسلامية تنشق عن الخلافة العباسية، وكانت تعتنق الفكر الإباضي، سنتناول في هذه المحاضرة الظروف التي أسهمت في قيام الدولة الرستمية مسلطين الضوء على أبرز أحداثها وأسباب انهيارها.

1–الخوارج بالمغرب

في خلافة هشام بن عبد الملك وولاية عبيد الله بن الحبحاب ظهرت أول فتنة بالمغرب. فاجتمعت جموعهم برئاسة ميسرة المطغري. وتوالت عدة وقائع بين الخوارج وولاة القيروان. انتصر في جميعها البربر. فازدادوا على الولاة جراءة. وازدادت الخارجية انتشارا. وظهرت الخارجية أولا حوالي طنجة البعيدة عن القيروان أثناء غياب الجيش العربي بصقلية تحت رئاسة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع. وأخذت تنتشر في القبائل حتى بلغت طرابلس. عرف البربر من مذاهب الخارجية **الصفرية والاباضية**. وكانت الأولى منتشرة في الجهات الغربية والثانية غالبة على النواحي الشرقية. وكان أكثر القبائل أخذا بالخارجية والدفاع عنها زناته وهواره، ومعظمهم اتخذ الصحراء والهضاب موطنا له

تعود بذور الفكر الخارجي في المغرب الإسلامي إلى حدود أواخر الخلافة الأموية وبداية العباسيين حيث كان دعاة وعلماء المذهب يتوجهون للمغرب الإسلامي وينشرون دعوتهم، ويحرضون على الخلافة العباسية، وخلالها انتشرت الثورات ضد الحكم العباسي واستقل بعض من ينتمي لمذهب الصفرية في

سجلماسة، وانتشر مذهب آخر وهو الإباضية في جبل نفوسة وبعض مناطق المغرب وخلالها نشأت الدولة الرستمية.

تقع الدولة الرستمية بين مملكة الاغالبة شرقا والادارسة غربا، حكمت الدولة الرستمية عدة أجزاء من المغرب الأوسط وإقليم طرابلس ومنطقة الجريد وامتد حكمها حتى قيام الدولة الفاطمية، حيث المناطق التي ينتشر فيها المذهب الإباضي، وامتدادها من جبال تلمسان غربا وانتشار نفوذها إلى إقليم طرابلس وجبل نفوسة شرقا على امتداد 1300 كلم في السهوب وفي واحات جنوب الجزائر، وفي الشمال الغربي كانت حدود الدولة تمتد حتى البحر، وينفسح لها المجال جنوبا الى ورقلة، ويمتد منها شريط على وادي ريغ الى الجريد وجبال دمر الى طرابلس وجبال نفوسة.

تُعَدّ الدولة الرستمية التي تعتنق الفكر الإباضيّ أحد فروع الخوارج[1]. والإباضية هي إحدى فرق الخوارج، وتنسب إلى عبد الله بن إباض التميمي. رغم أنهم ينفون عن أنفسهم هذه النسبة. وقد دخل مذهب الإباضية إلى إفريقية في النصف الأول من القرن الثاني، وانتشر بين البربر حتى أصبح مذهبهم الرسمي. وتتفق عقيدة الإباضية مع أهل السُّنَّة في الكثير، وتختلف معهم في القليل.

2-عبد الرحمن بن رستم (162هـ-779م):

مؤسِّس هذه الدولة هو عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام، وبهرام هو مولى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه[2] وقد قَدِم رستم إلى مكة بصحبه زوجته وابنه عبد الرحمن لأداء فريضة الحج فمات، فتزوجت أرملته برجلٍ من أهل القيروان، حملها وابنها عبد الرحمن معه عند عودته إلى بلده، وتربَّى عبد الرحمن بن رستم في القيروان، وأخذ العلم عن فقهائها، ومال إلى تعليم الخوارج الإباضية، كما يقول ابن خلدون: "وأخذ عبد الرحمن بن رستم بدين الخارجيَّة والإباضية منهم[3]، وكان ذلك بتأثير من سلمة بن سعيد داعية الإباضية الذي كان يجتهد آنذاك في نشر المذهب الإباضي في ربوع المغرب"[4]، ثم خرج إلى المغرب الأوسط، واتخذ من مدينة تاهرت مركزًا لنشر دعوته.

---

[1] لخوارج فرقة من المسلمين خرجت على الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأصحابه بعد قصة التحكيم، ومن خروجهم أخذوا اسم الخوارج، وانقسموا إلى عدة فرق منها الأزارقة والإباضية والنجدات والصفرية.

[2] محمود شاكر: التاريخ الإسلامي (الدولة العباسية) 134/5.

[3] ابن خلدون: العبر 6/ 246.

[4] محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم، ط3، 1987، ص77- 78.

عينه أبو الخطاب[5] نائبًا له على مدينة القيروان، فاكتسب الخبرة الإدارية، وعرف طبائع الناس وظروفهم، ولم يدخر جهدًا في محاربة الولاة العباسيين، وجَمْع شمل الإباضية، خاصة بعد مقتل أبي الخطاب.

وكانت مبايعة عبد الرحمن بن رستم تشكِّل النمط الإسلامي السليم في مبايعة الحاكم المسلم؛ ذلك لأن الإمام يُختار طبقًا لشروط بعينها ينبغي توفرها فيه، وهو ما حدث عند اختيار الإمام الرستمي. وقد قدَّم عبد الرحمن بدوره شروطًا يقول فيها: "إن أعطيتموني عهد الله وميثاقه لتستطيبوا إليَّ، ولتطيعوني فيما وافق الحق وطابقه قَبِلتُ ذلك منكم". وهو يعني إن لم يعطوه عهدًا بالطاعة فيما وافق الحق رفض البيعة، وتلك ظاهرة فريدة في الحكم لا يمكن أن تتوفر إلا في نظام الحكم الإسلامي. وبالفعل كان عبد الرحمن بن رستم عادلاً مصلحًا، ساعيًا إلى ازدهار الحياة العامة في أنحاء دولته، وكان كثيرٌ من غير الإباضية يتجهون إلى تاهرت آمنين على أنفسهم وممتلكاتهم.

3–مراحل الدولة الرستمية

من الصعب تقسيم مراحل الدولة الرستمية بين الاستقرار والاضطراب، لأنها لم تعرف الاستقرار إلا في عهد مؤسسها عبد الرحمن وحفيده أفلح بن عبد الوهاب، عدا ذلك لم تهدأ الثورات بطابعيها المذهبي والقبلي حتى نهايتها.

[5] أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافر، يمني دانت له طرابلس ثم القيروان وبرقة وفزان، وأسس دولة إباضية هناك، وحارب ورفجومة الصفرية. واختار زميله في العلم عبد الرحمن بن رستم قاضيا في طرابلس.

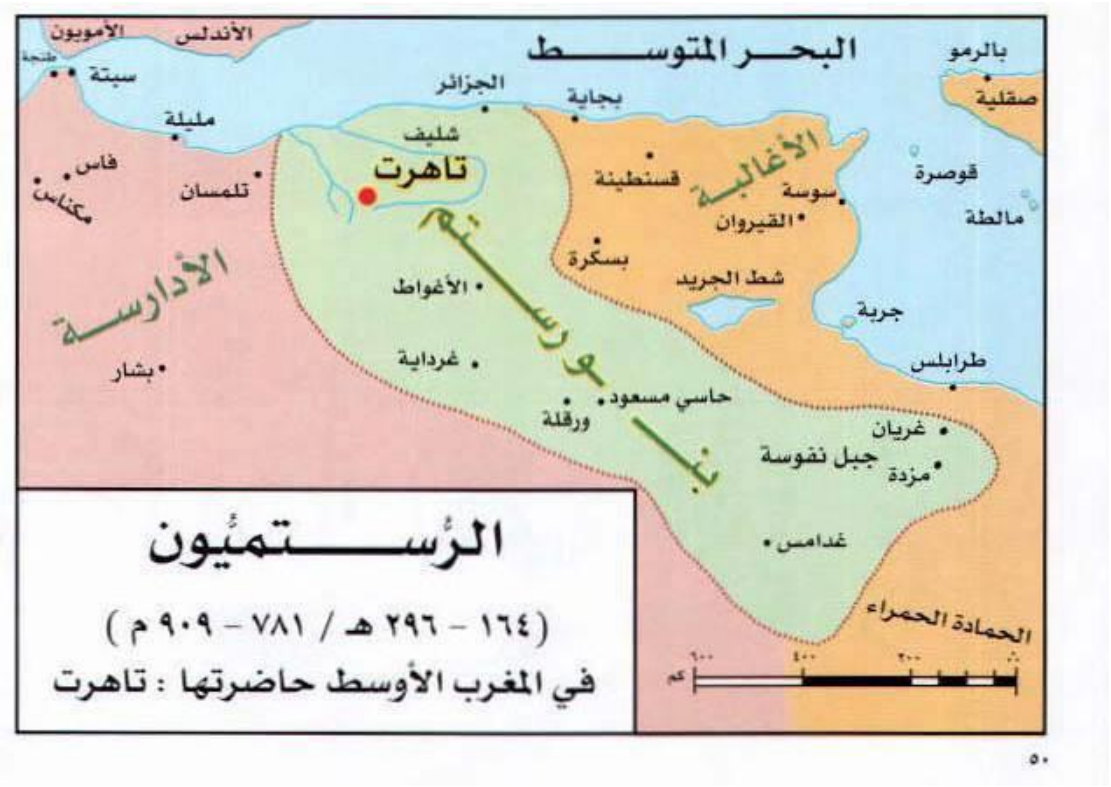

أ–مرحلة التأسيس

مثلت عهد عبد الرحمن بن رستم الذي كان رجلاً زاهدًا، وذا صبر على الشدائد، وملتزمًا بكتاب الله وسنة نبيه، حيث اختط مدينة تهيرت، ودخل في طاعته العديد من القبائل مثل: لماية، وسدرانة، ومزاتة، ولواتة، ومكناسة، وغمارة، وأزداجة، وهوارة، نفوسة. اختار مجلسًا للشورى، ليُختار من بين أفراده مَن يصلح للإمامة من بعده، وكان ابنه عبد الوهاب ضمن أفراد هذا المجلس، ثم مات في سنة (168هـ-784م).

اختار مجلس الشورى عبد الوهاب ليكون خلفًا لأبيه في الإمامة، واتسم عهده ببعض الاضطرابات والقلاقل، وواجه العديد من الثورات التي اتخذ بعضها طابعًا مذهبيا، وبعضها الآخر طابعًا قبليا، حتى مات عبد الوهاب سنة 198هـ.

ب–مرحلة الاستقرار

مثلت عهد **أفلح بن عبد الوهاب** 198هـ-814م، الذي بويع خلفًا لأبيه، وكان ذا صفات طيبة، وجاءت مبايعته على عكس ما نهجه الخوارج في تعيين الإمام، إذ اختاره أبوه للإمامة قبل وفاته، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة الظروف التي ألمت بالبلاد، حيث أحاط الأعداء بمدينة تهيرت، وكان لابد من اختيار رجل شجاع يتمكن من مواجهة الأعداء. وقد بلغت الدولة في عهده أوج ازدهارها، ونشطت

التجارة، وأقبل الناس من كل مكان قاصدين العاصمة «تهيرت»، وتُوفِّي الإمام «أفلح» في سنة 240هـ، إثر حزنه الشديد على وقوع ابنه «أبي اليقظان» في أيدي العباسيين.

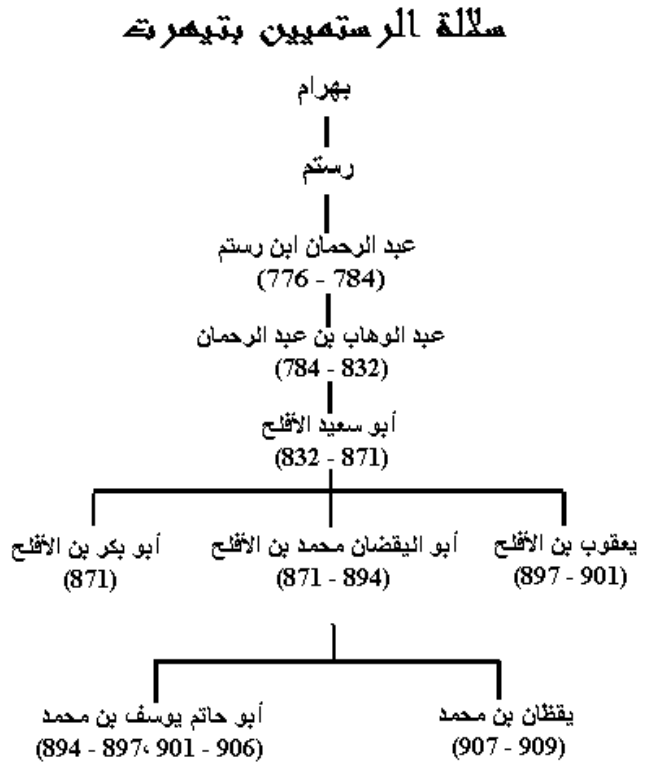

ج–مرحلة الاضطراب والانهيار

بدأت مع تولي **أبي بكر بن أفلح** الذي لم يكن في شدة آبائه وأجداده وحزمهم، فضلا عن انغماسه في الترف والنعيم وميله إلى الراحة، وقد تفرغ لراحته وملذاته حين خرج أخوه أبو اليقظان من سجن العباسيين وشاركه الحكم، ولكن أخطاء أبي بكر كانت سببًا في نشوب الصراع بين طوائف الدولة الرستمية، واندلاع المعارك الطاحنة، التي أسفرت عن هزيمة حكام البيت الرستمي، واعتزال أبي بكر منصب الإمامة. حاول بعدها أخوه **أبو اليقظان** إصلاح الأمور بتوليه بعده.

وعرفت هذه الفترة تدخل بعض العامة في شئون الحكم طمعا في تحقيق المكاسب، مما أدى إلى تأليب القبائل ضد الإمام، وتنصيب غيره، حتى صار هناك إمامان من بيت واحد، أبو حاتم بن أبي اليقظان وعمه يعقوب بن أفلح يقفان وجهًا لوجه في صراعٍ دامٍ على السلطة، واستعرت الفتن والقلاقل، وتطلع مختلف القبائل والطوائف إلى الاستئثار بالحكم، كما دبرت المؤامرات من داخل البيت الرستمي وبين فرق الخوارج للإطاحة بالإمام، إلى درجة الاستنجاد بأبي عبدالله الشيعي الذي كان قد نجح في بسط نفوذه على مساحات كبيرة من أرض المغرب، واتجه إلى تهيرت، فخرجت لمقابلته وجوه أهل المدينة ورحبوا

بمقدمه، ودخل العاصمة في سنة 297هـ- 910م، واستولى على ما بها من أموال ومغانم، فطويت صفحة الدولة الرستمية.

الخاتمة:

من خلال المحاضرة نتوصل إلى النتائج التالية:

-تأسست الدولة الرستمية كأول دولة مستقلة عن الخلافة العباسية بالمغرب بعصبية دينية خارجية على المذهب الإباضي على يد عبد الرحمن بن رستم.

-اجتمعت عوامل متعددة في سقوط الرستميين أهمها:

. كثرة الاضطرابات والثورات ذات الطابع المذهبي والقبلي

.استعار المؤامرات في البيت الرستمي بين أفراد الأسرة الواحدة من أجل الإمامة.

. تدخل بعض العامة وطمعهم في الوصول إلى جزء من السلطة.

.وصول المد العسكري الفاطمي بقيادة أبي عبد الله الشيعي.

المصادر:

- محمود إسماعيل عبد الرازق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ط2، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985،

- حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد 1992.

- عبد الرزاق محمود أسود، مدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، ط 1، الدار العربية للموسوعات، بيروت لبنان 1981.

- عبد العزيز فيلالي، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط2، القاهرة، 1999.

- عبد الكريم الفيلالي، التاريخ السياسي لبلاد المغرب، ط1، شركة تاس، للطباعة القاهرة 2006، ج1.

- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب ط 5، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء 1996 .

- محمد علي دبوز تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة تاولت الثقافية، 2010، ج2.

- محمود إسماعيل عبد الرازق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ط2، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985،